الفصل الأول

الفراسة عبر العصور

تحليل الفلاسفة القدماء لعلم الفراسة :

الفراسة كما عرفها المعجم الوسيط هي : المهارة في تعرّف بواطن الأمور من ظواهرها .

وهناك أدلة منذ أقدم عصور الأدب الكلاسيكي على وجود علم الفراسة كما نشْتَمّ من وصف هوميروس – مؤلف الإلياذة – لبعض شخصياته ، مثل وصفه لثرسيتس Thersites . وكتب أبقراط أبو الطب حوالي سنة ٤٥٠ ق. م عن اعتقاده في تأثير البيئة في تشكيل الميول والأخلاق مما ينعكس على ملامح الوجه ؛ وقد قسم أبقراط الناس إلى أنماط تبعًا لكيمياء الدم، وقرر أن هناك رابطة بين هذه الأخلاط والأمزجة ، فالناس لديه أربعة أنواع :

١ – الصفراوي choleric : ويتميز بحدة الطبع وتقلب المزاج .

٢ – السوداوي Melancholic : ويتميز بالاكتئاب والنظر إلى الحياة نظرة سوداء.

٣ – الليمفاوي أو البلغمي Phlegmatic : وهو بارد في طباعه، جاف وغير حار الشعور .

٤ – الدموي Sanguin : ويتميز بالمرح والأمل في الحياة .

ومازالت هذه الألفاظ تستعمل إلى الآن في حياتنا اليومية !

وقد مارس فيثاغورس الفراسة في اختياره لتلاميذه . ويقول أفلاطون : إن سقراط توقع سطوع نجم القائد والسياسي الأثيني الكيبياديس Alcibiades من ملامح وجهه. ويقول أبيوليوس Apuleis : إن سقراط اكتشف قدرات أفلاطون من أول مقابلة .. ويقول شيشرون Cicero الخطيب الروماني الشهير : إن متفرسًا معروفًا هو زوبيروس Zopyrus كان يدعي معرفة عادات وأخلاق الرجال من أشكالهم ، قد وصف سقراط

بأنه غبي وشهواني وثرثار ممل. ويضيف الكسندر أفروديزينسيس Alexander Aphrodisiensis أنه عندما ضحك تلاميذ سقراط من هذا الوصف، ردّ سقراط بأن هذا كان وصفًا حقيقيًا له قبل أن تهذبه دراسة الفلسفة !

وأول كتابة منظمة في هذا الموضوع تُعْزَى إلى أرسطو ، حيث كتب ستة فصول في طرق دراسة الفراسة ، وعلامات الشخصية ، وعلامات الضعف والقوة ، والعبقرية والغباء ، والخجل ، والتعقل والغضب .. إلخ . ثم درس الفراسة في الرجل والمرأة من ملامح الوجه ، ولون البشرة والشعر ، وشكل الجسم والأطراف ، وطريقة المشي والصوت، وشبَّه أرسطو الإنسان بالحيوانات المختلفة . فشبه الرجل بالأسد والمرأة بالنمرة. وتستطيع الحكم على كتابه من الفقرة التالية عندما يناقش موضوع الأنوف فيقول : "إن ذوي الأنوف الغليظة أشخاص عديمو الإحساس ، مثل الخنازير ، أما ذوو الأنوف الحادة الطرف فأشخاص غِضابٌ مثل الكلاب ، أما الأنف الضخمة المنحنية – الفطساء – فهي للعظماء مثل الأسد ، أما الأنف المعقوفة مثل منقار النسر فيتميز أصحابها بالنبل مع الطمع .. إلخ" .

وعندما انتقلت شعلة العلم لأيدي العرب رأينا بعض علمائهم أمثال : الرازي ، وابن رشد ، وابن سينا يكتبون في هذا الموضوع، ولكن لم يخرج ما كتبوه كثيرًا عما قاله أرسطو . ففي كتاب الفراسة للرازي نجد نفس الآراء بنفس الألفاظ تقريبًا .

وكذلك كتب في هذا الموضوع ابن قيم الجوزية في كتابه "مدارج السالكين" وكتب أيضًا محمد بن الصوفي كتابه "السياسة في علم الفراسة" ولكنه خلطه بالكثير من التنجيم واستطلاع الطالع وتأثير الأفلاك والأبراج .

وعندما ترجمت كتب العرب للغات الأوربية ، نجد مايكل سكوت ساحر بلاط فريدريك الثاني يؤلف كتابًا عن الفراسة حوالي عام ١٢٧٠ م ، وكذلك كتب في هذا الموضوع البرتس ماجنوس في نفس الوقت تقريبا . ومنذ ذلك الحين وإلى الآن نجد كثيرًا من المؤلفات والتي اختلط فيها علم الفراسة مع قراءة الكف والتنجيم .

ومع تطور علم التشريح ومعرفة العلماء لجسم الإنسان بدقة أكثر ، ابتدأ علم الفراسة يأخذ صبغة تشريحية . ففي عام ١٨٠٠ م ظهر علم "قراءة نتوءات الجمجمة Phrenology" على يد عالم فرنسي يميل إلى الدجل العلمي ويدعى جال Gall ، وتعتمد نظريته على المبادئ التالية :

١ – المخ هو مكان العقل .

٢ – القوة العقلية للفرد تنقسم إلى عدد محدد من القدرات .

٣ – كل قدرة عقلية لها مكان محدد في المخ .

٤ – حجم المكان الذي تستقر فيه كل قدرة عقلية يحدد مساحة هذه القدرة ونسبتها إلى القوة العقلية .

٥ – التشابه بين المظهر الخارجي للجمجمة والمخ داخلها قريب بحيث نستطيع أن نعرف أي الأماكن على سطح المخ كبير وأيها الصغير .

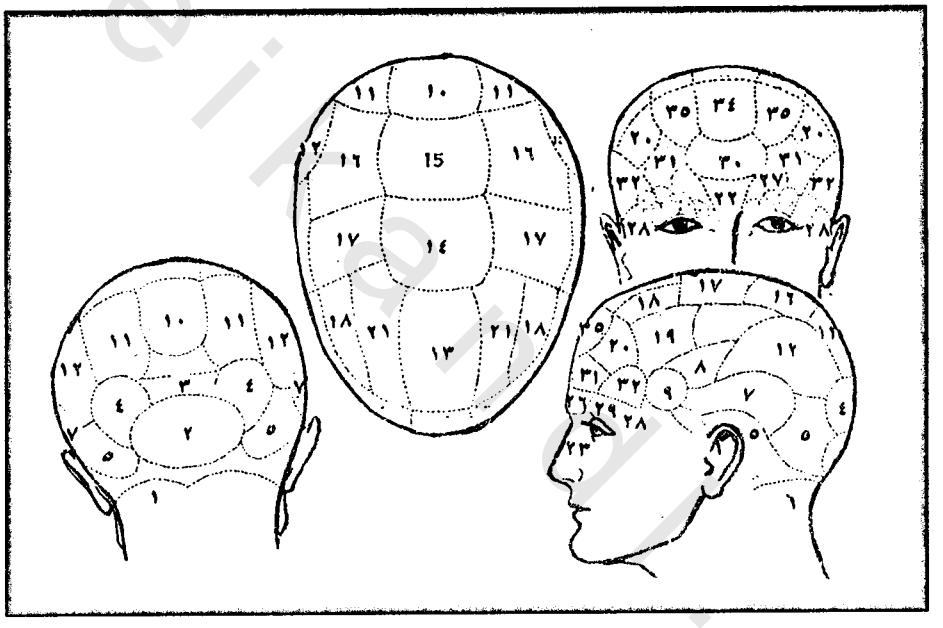

وقد قسم جال وأتباعه سطح الجمجمة إلى حوالي ٣٥ منطقة كل منطقة منها مختصة بقدرة عقلية معينة ، مثل القدرة على العراك (٥) أو القدرة على الخداع (٧) أو حب التقليد (٢١) أو حب المديح (١١) أو طيبة القلب (١٣) .. إلخ .

فمثلا لاحظ جال رؤوس المتعبدين في الكنائس ، وانتهى إلى وجود نتوء معين في الرأس يميزهم عن غيرهم ، وافترض وجود ملكة التدين تحت هذا النتوء (١٤) ، ولما كان الشعراء يضعون إصبعهم السبابة في مكان ما على جانب الجبهة (١٩) يستلهمون شيطان الشعر ، فقد قرر أن ملكة مثالية تختفي تحت هذا المكان .

ويكفي لدحض هذا الرأي أن تقسيم المخ بهذا الشكل لا يتفق مع أبسط المبـــادئ العلمية في تشريح المخ وعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس .

وقد انتشرت هذه الطريقة – انتشار النار في الهشيم – في القرن التاســـع عشـــر . وأصبح في كل مكان مختص يقوم بقياس حجم ونتوءات الجمجمة ليتنبـــأ بـــالقدرات العقلية للفرد ؛ ثم ساءت سمعة هذه الطريقة حتى اندثرت .

ومع تقدم علم وظائف الأعضاء Physiology بدأ عصر جديد من دراسة الفراســة على أساس فسيولوجي على يد السير تشارلس بل Sir Charles Bell عندما كتـــب كتابه "مقالة عن تشريح التعبيرات " Essay on the Anatomy of expression "نشره في عام ١٨٠٦ م . وكان هذا الكتاب أول كتاب علمي عـــن المظـــاهر العضويـــة للانفعالات بشرحه تأثير الانفعالات على العضلات المختلفة وكيف تظهر التعبـــيرات التي تدل على عواطف أو انفعالات معينة .

وفي عام ١٨٥٥ كتب الفيلسوف المشهور هربرت سبنسر H.Spencer كتابه عـــن علم النفس مظهرًا فيه العلاقة بين الحالة النفسية والمظاهر الجسمانية .

وقام تشارلس داروين Charles Darwin – على أساس العمل السابق – بكتابـــة كتابه "التعبير عن الانفعالات Expression of Emotion " في عـــام ١٨٧٢ فوضـــع بذلك أسس علم الفراسة الحديثة الآتية :

١ – بعض الأفعال المعقدة ، تحت تأثيرات عقلية معينة ، تساعد بطريقة مباشرة أو غـير مباشرة في إشباع بعض الرغبات أو الأحاسيس ، وعندما تنشأ نفـــس الأحـــوال العقلية السابقة الذكر ، يترتب عليها ظهور هذه الأفعال والحركات حتى لو كانت فائدتها قد انتهت .

٢ – عندما يحدث تأثير عقلي معاكس لتأثير تسبب عنه أفعال أو حركـــات معينـــة ، فهناك ميل قوي لعمل حركات أو أفعال معاكسة للحركات الأولى .

٣ – عندما تتهيج المشاعر ، تنشأ قوة عصبية بكمية زائدة ، وتنتقل في اتجاهات محـــددة معتمدة في ذلك على الاتصالات العصبية والعادات التي تعودها الإنسان .

٤ – بعض العضلات التي تسبب ظهور الثنيات أو التجاعيد (في الوجه مثلاً) تقوى بالعمل المستمر ، وعندما يفقد الجلد حيويته بكبر السن ، فإن هذه التجاعيد – التي تنشأ بزاوية قائمة على اتجاه العضلات المسئولة – تصبح دائمة .

٥ – قد يؤدي انقباض العضلات المزمن – بتعديل التغذية المحلية – إلى تغيير شكل العظام والغضاريف المتصلة بالعضلات المسئولة عن تعبيرات الوجه .

٦ – إذا وجد أن الميول العقلية تُورث ، فسوف نجد أن بعض تعبيرات الوجه قد تكون وراثية .

وعلى الرغم من ظهور انتقادات كثيرة لاقتراحات داروين كما ظهر في مؤلفات البعض ، مثل مانتيجاتسا Mantegazza في كتابه "الفراسة والتعبير Physiognomy and Expression " ، إلا أننا نستطيع القول أن داروين قد وضع أسسًا خليقة بالتفكير ، فمثلا عند الغضب يقطب الوجه (تظهر تكشيرة) والغرض الأساسي من ذلك هو إخافة العدو . ولكن باستمرار حالة الغضب وتكرارها تنمو العضلات المسئولة عن ذلك ويَتَغضّن الجلد وتظهر التجاعيد ، مما يعطي لوجه الشخص مظهرًا متجهمًا دائمًا حتى في حالات سروره .

وقد كتب كثيرون في الفراسة ، من أشهرهم العالم الإيطالي سيزار لومبروزو Lombroso مؤسس علم الإجرام في كتابه "الرجل المجرم" L'Uomo Delinquente" الذي أثر وما زال يؤثر على كتابات الكثيرين على الرغم من ثبوت أخطائه، أمثال أرثر كونان دويل ، وإدجار والاس ، وأمثال الكاتب الكبير عباس محمود العقاد .

❑ رأس العقاد في الفراسة :

يقول العقاد في كتابه "عبقرية عمر" في وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "كان طويلاً بائن الطول ، يرى ماشيًا كأنه راكب ، جسيمًا صلبًا ، يصرع الأقوياء ويروض الفرس بغير ركاب ، ويتكلم فيسمع السامع منه ، وفاق ما رأى من قول وفصل خطاب.. .." .

تشهد العيون كما تشهد القلوب أنه لمن معدن العظمة ، أو معدن العبقرية والامتياز بين بني الإنسان . وللمُحدثين علامات في العبقرية تتصل بالتكوين ، وتركيب الخلقة كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال ، فالعالم الإيطالي "لومبروزو" ومدرسته التي تأتم برأيه ، يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور في أحد من أهلها .. وهي علامات تتفق وتتناقض ، ولكنها في جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة ..

فيكون العبقري طويلاً بائن الطول ، أو قصيرًا بيِّن القصر ، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين ، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بندرة الشعر على غير المعهود في سائر الناس . ويكثر بين العباقرة من كل طراز جَيَشَان الشعور، وفرط الحس، وغرابة الاستجابة للطوارئ ، فيكون فيهم من تفرط ثورته كما يكون فيهم من يفرط هدوءه، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يلحظ تارة في الذكاء والفراسة، وتارة في النظر على البعد ، وتارة في الحماسة الدينية أو في الخشوع لله...

ثم يذكر بعض عجائب فراسته فيقول : "وكانت له فراسة عجيبة يعتمد عليها ويرى أن : من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه" وتروى له في أمر هذه الفراسة روايات قد نصدق منها القليل وتتسرب المبالغة إلى كثير ، ولكنها في كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لا شك فيها ، وهي أنه اشتهر بالفراسة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة ، فمن ذلك أنه كان جالسًا فمرَّ به رجل جميل فقال ما معناه : أحسبه كان كاهنهم في الجاهلية .. فكان كذلك .

وأنه أبصر أعرابيا نازلا من جبل فقال : هذا رجل مصاب بولده قد نظم فيه شعرًا لو شاء لأسمعكم. ثم سأل الأعرابي من أين أقبلت؟ فقال : من أعلى الجبل.. فسأله وماذا صنعت فيه؟ قال : أودعته وديعة لي.. قال : وما وديعتك؟ قال : ابن لي هلك فدفنته .. قال : فأسمعنا مرثيتك فيه .. فقال : وما يدريك يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما تفوهت بذلك ، وإنما حدثت به نفسي ، ثم أنشد أبياتًا ختمها بقوله :

فالحمد لله لا شريك له في حكمه كان ذا وفي قدره
قدر موتا على العباد فما يقدر خلق يزيد في عمره

فـــبكى عمر حتى بل لحيته ثم قال : "صدقت يا أعرابي .." ثم قال عباس العقاد : "هـــذه الفراســـة وشـــبيهاتها هي ضرب من استيحاء الغيب واستنباط الأسرار بالنظر الثاقـــب. وما من عجب أن تكون هذه الخصلة قرينة من قرائن العبقرية في حاشية من حواشيها ..

❑ الفراسة في الميزان !!

إذن مـــا هـــي العبقرية في لبابها كائنا ما كان عمل العبقرية المتصف بها؟.. ما هي الحكمة العبقرية؟.. ما هو الفن العبقري؟.. ما هو دهاء السياسة في الدهاة العبقريين؟.. من هو :

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد ســـمـــعـــا

كـــل أولـــئك يلـــتقون في هبة واحدة ، هي كشف الخفايا ، واستيضاح البواطن واســـتخراج المعاني التي تدق عن الألباب .. فاتصالها بالفراسة وشبيهاتها أمر لا عجب فيه ولا انحراف عن النحو الذي تنتحيه ..

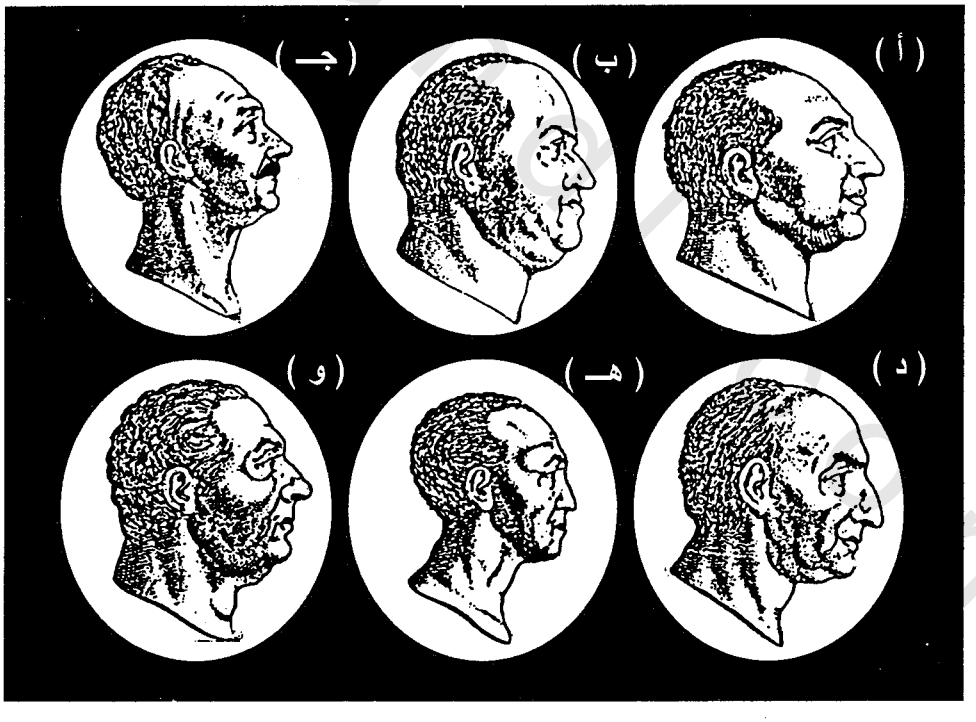

ولكن هل نستطيع حقًا قراءة أخلاق إنسان مّا وشخصيته من ملامح وجهه وشكل وتكوين جسمه؟ لا أظن ذلك ممكنا إلا في القليل من الحالات ، مثل بعض الحالات الطبية كالطفل المنغولي Mongol الذي يكون ضحوكًا متخلفًا عقليًا أو بعض حالات زيادة إفراز هورمون النمو أو الأكروميجاليا Acromegaly حيث يكون المصاب متجهمًا، ضخم الأطراف ، سريع الغضب . ولكن منذ قديم الزمن ، وإلى الآن انتشرت فكرة الفراسة القديمة عن طريق قراءة ملامح الوجوه . والمثال التالي من كتاب ألّفه قسيس اسمه لافاتر Lavater في القرن التاسع عشر ، ننقل عنه بعض الصور وتعليق لافاتر عليها :

أ - عصبي ورقيق ، ولكنه ذكي .

ب - غبي ومغرور .

جـ- أمين ومفكر ، ولكنه مشدود الأعصاب .

د - موهوب ولكنه ضعيف الشخصية .

هـ - سعيد وأمين وذكي ، ولكنه أناني .

و - غير طبيعي ومريض .

هل تشبه هذه الصور أشخاصًا تعرفهم ؟ هل توافق على آراء لافاتر عن شخصياتهم؟

أجمعت كتب الفراسة القديمة على أن بروز الأسنان العليا مع صغر حجم الفك الأسفل دليل الغباء وضعف الشخصية ، ومع ذلك فلي زميلان طبيبان بهذه الأوصاف ويتميزان بالذكاء الحاد وقوة الشخصية !

فملامح الوجه وشكل الجسم يعتمد أساسًا على عوامل وراثية ، أما تكوين الشخصية فيعتمد أساسًا على عوامل بيئية ، والتي يتعلم منها الإشارات والتعبيرات التي تظهر على الوجه أو تبدر من الأعضاء ، وهذه هي التي نتعرف منها على ما يدور بخلد الشخص من مشاعر وأحاسيس .